مرونة دمشق

الأستاذ شفيق جبري

أشهد في دمشق أمراً عجيباً ولست أدري هل أشـــهد مثله في بلد آخر ، فقد شرعت في مخالطة الناس بعد الحرب الكبرى الأولى فجالست من جالست وعاشرت من عاشرت • والذي شهدته من أوّل حياتي أنّه اذا عاش في دمشق رجل من لبنان أو فلسطين أو مصر أو الحجاز أو العراق أو من أي بلد آخر فإنه لا يغيّر في حديثه لهجةَ بلده ؛ فإذا كان من لبنان كانت لهجته لبنانية واذا كان من فلسطين حرص على اللهجة الفلسطينية واذا كان من مصر لم يبدّل لهجته المصرية • وكذلك إذا كان من الحجاز أو العراق أو من أي بلد آخر ، فقد يقيم القادم على دمشق من بلدان غير الشام سنين طويلة تبلغ عشرين سنة أو ثلاثين سنة فأراه بعد هذه الاقامة الطويلة كأنه لا يزال يقيم ببلده بين ظهراني قومه يخاطبهم بلهجته فلا يتغير شيء من هذه اللهجة • وقد كانت لي صلة صداقة بجماعة من رجال الصحافة بعضهم من بيروت وبعضهم من يافا ، وكانت لي صلة برجال آخرين من مصر أو بغداد ، فكنت إذا جالستهم بعد إقامتهم بدمشق عشرين ســـنة أو أكثر وكنت اذا حدّثتهم أو حدثوني فلا أراهم ينحرفون في أحاديثهم عن لهجة بلدهم • فلم تؤثر في شيء من لهجتهم إقامتهم بدمشق زمنا طويلا•

وعلى عكس هذا الأمر ما أراه من أهل دمشق ، فإذا غادروا بلدهم إلى بلد آخر مثل لبنان أو مصر أو الحجاز أو العراق أو غيرها من البلدان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فإنهم لا تكاد أقدامهم تطأ تلك البلاد ولا تكاد آذانهم تسـمع لهجات أهلها حتـى يأخذوا بتقليد هـذه اللهجات فتراهم يعـدلون عن لهجتهم الدمشقية ويميلون الى لهجة البلد الذي أقاموا به فإذا كانوا في مصـر قلّدوا أهل مصر في لهجتهم ، واذا كانوا في العراق تشبهوا بأهل العراق في لهجتهم على صعوبة هذه اللهجة ، حتى اني كنت في بعض سفراتي الى مصر أضطر الى مجاراة أهلها في لهجتهم على الرغم من استغرابي لهـذا الأمر • وكنت اذا حاولت المحافظة على لهجتي الدمشقية أحافظ عليها مرّة وأعجز عن هذه المحافظة مرة •

وأعرف صديقاً من أصدقائي رحـل مرّة الى الحجاز وأقام بـين السعوديين زمناً غير طويل ثم عاد الى دمشق يلبس لباس السعوديين ويقلّد لهجتهم في أحاديثـه ويكرّر بعض عباراتهم المألوفة حتـى كان إخوانه يتنادرون به إلا أنه ما لبث أن طرح اللباس السعودي وتخلّى عن لهجـة أهل نجد وعاد الى لهجته الحمصية رحمه الله أوسع الرحمات •

لقد شهدتْ دمشق من أول تاريخها حتى عصرنا هذا كثيراً مـن الفاتحين والغزاة الذين مرّوا بها ، واستولى عليها كثير من الملوك والولاة فكان أهلها مضطرين الى مسايرة أولئك الفاتحين والغـزاة حرصاً على أمور دنياهم ، فخلقت فيهم هذه المسايرة نوعاً من المرونة جعلتهم يتخلّوْن في بعض الأحيان عن خصائصهم ويأخذون بخصائص من هجم عليهم من الفاتحين والغزاة • ومن هذه الخصائص تقليد اللهجات سواء أكانت سهلة أم كانت صعبة حتى كاد هذا التقليد أن يكون فيهم على ترادف السنين ابن الطبع •

على أن هذه المـرونة على المسايرة لا تتعدّى تقليـد اللهجات أو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللباس أو نحو ذلك ، فإنهم اذا اضطروا الى الانتفاض على الغزاة والفاتحين والملوك والولاة انتفضوا واذا أُلْجِئوا الى الثورة ثاروا ، فهم قد جمعوا بين المرونة وضدها فما أسرعهم الى التقليد والمسايرة وما أسرعهم الـى الانتفاض والثورة .

على أنه قد شهدتْ بلاد ثانية مثل الذي شهدته دمشق في ماضي أحقابها . لقد شهدت مصر مثلاً كثيراً من الغزاة والفاتحين فلم يعمد أهلها لتغيير لهجتهم في أحاديثهم من باب المسايرة مثل الذي فعله أهل دمشق فهل معنى هذا انهم أقلّ مرونة ؟ هل معنى هذا أن أهل دمشق قد اختصهم الله تعالى بهذه المرونة دون غيرهم ؟ .

هذا أمر شهدته في خمسين سنة من أول حياتي العامة،وقد حاولت أن أجد له سبباً من الأسباب أو علّة من العلل فلم أجد إلا ما ذكرتُه من ميل أهل دمشق الى المسايرة ولو حيناً من الدهر . وقد أكون مخطئاً في تقديري أو قد أكون مصيباً وعلى كل لا أجزم ولكني أخمّن تخميناً وأشعر بأنه قد أدركتني الحيرة في الاهتداء الى حقائق الأسباب والعلل فأكتفي بتدوين هذا الأمر الذي خطر على البال في هذه المسألة غير قادر على الزيادة في الإيضاح ، فلستُ من علماء هذا الباب في وجه من الوجوه ، فإذا عنّ لي أمرٌ في هذا الموضوع فلا أقطع به .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net